من هو قريبي؟

"اذهب أنت واصنع معه الرحمة "

تُحدّد شخصيّة الإنسان من خلال علاقته بمحيطه وبالتالي من علاقته بقريبه وبمن يضعه الله في طريقه. فما هو نوع العلاقات وما هي حدودها التي يريد الإنسان بناءها ومدّها، ومع مَنْ مِن الناس ؟

ليست هذه العلاقات مجرّد جزء من الحياة. إنّما تشكل الأمر الأهم، لا بل غاية الحياة وطريقها. وخاصة اليوم، مهما ازداد المجتمع في طابعه فرديةً، فإن الإنسان لا يستطيع أن يحيا بمفرده وعلاقاته تتشعب وتزداد. فكيف يريد أن يحددها؟ لا بل ما هو نوعها مع الأنواع المختلفة من الناس الذين هم حوله؟

السؤال الذي حيَّر هذا الناموسيّ ليس سهلاً، من هو قريبي الذي تنطبق عليه وصيّة العهد القديم، أي الذي يجب أن نحبّه بمقدار ما نحبّ أنفسنا؟ وبالتالي ستشغل حياتُه موقعاً هاماً لدينا بمقدار حياتنا، وألتزم به ولربّما هو سيلتزم بي!

لليهوديّ آنذاك، يستحق كلمة "قريب" بهذا المعنى، الأخ بالعائلة ذاتها، أو أوسع بقليل ابن الدين ذاته. وكان الدين بالنسبة له هو القومية أيضاً أي العرق.

لآخرين، بتعدّد مذاهبهم الدينيّة والسياسية والقومية وسواها تتعدّد معاني "القريب". فهناك مَنْ يعرفه بحسب الدم والعرق، ومنهم مَنْ يحدّده بحسب القومية، ومنهم مَنْ يقبله ضمن إطار الدين الواحد ذاته، وآخرون يعتبرونه ابن البلد أو الوطن ذاته... وحياة اليوم في عولمتها تتجه باعتباره ابن المصلحة المفيدة ذاتها.

مَنْ هو "القريب" إذن من وجهة نظرنا المسيحيّة؟ في جواب المسيح هناك شرطان لتحديد القريب وتعريفه:

التحديد الأوّل هو وجود المحبّة. المحبّة الملتزمة التي تعرف ذاتها رحمةً، ومسؤوليّة. المحبّة التي تجد نفسها مرغمة من حبها على التزام شؤون هذا القريب في حاجاته وشدائده. المحبّة العملية التي لا يمكنها أن تتقوقع في الوسط دون أن ترى وضع المحيط، التي لا يمكن لها أن تعبر على ألم دون أن تتأثر!

ماذا تفيد قرابة العائلة والأخوّة إذا غابت المحبّة وضمر الإحساس لكلّ أخ بأخيه؟ وماذا يعني الانتماء إلى بلد واحد دون المحبّة والمسؤوليّة؟ كلّ روابط القربة بغياب المحبّة تصير شباكاً آسرة يهرب الإنسان منها في أيّة لحظة، وفي لحظة الشدّة.

والتحديد الثاني للقريب، والذي يقلب به الربّ يسوع الموازين والاعتبارات القديمة المعروفة والسائدة حتّى اليوم في ذهنيات الأغلبية من الناس، هذا التحديد هو "من نذهب نحن إليه، ونصنع معه الرحمة". القريب ليس مَنْ ربطتْنا به علاقاتٌ عائلية وحسب، أو جمعتنا معه مبادئ حزبية مثلاً، أو مَنْ وصلتنا به روابط دينيّة أو عرقية على سبيل المثال. القريب هو الإنسان الذي نتجه إليه، نذهب نحن إليه لنصنع الرحمة معه. وكلّ الروابط السابقة بتنوعها حين توجد، إذا لم نتجهْ فيها من الذات إلى الآخر لا تصبح روابط قرابة حقيقيّة بل مزيّفة.

القريب بكلمة أخرى يمكن أن يكون كلّ إنسان، ويجب أن نخرج إليه بروح الرحمة. كلّ إنسان أمام المسيحيّ هو قريب، خرجنا إليه أو ما زلنا مقصّرين تجاهه. كلّ إنسان يضعه الله في طريقي، كان مَنْ كان، ومهما كان دينه أو انتمائه أو روابطه هو قريب. وإما أن أكون قد حققت قرابته لي باتجاهي إليه بالرحمة أو أسأت إلى القربة بتجاهله.

علينا ونحن نعبر في الحياة، ألا نحدد للقربى حدوداً قديمة، كلّ من نجدهم على جوانب الطريق هم أقرباء. والمسيحيّ سامري صالح كسيده، يلتفت إلى كلّ مَنْ هم على دروب حياته. وكلّ قرابة هي فرصة علينا ألاّ نخسرها، لأننا سنُدان عليها إذا لم يكنْ قلبنا رؤوفاً أمامها ومتحنِّناً فيها.

المحبّة بطبيعتها تخرج بالذات من الأنا إلى الآخر. المحبّة تطلب الآخر ولا تطمئن إلا عندما تلتقي به. المحبّة لا تطمئن في النسيان بل ترتاح في المعاينة. الآخر ليس جحيماً أو ثقلاً يرمى على دروبنا، الآخر "فرحنا".

الضمانات في الحياة ليست في تجنب الآخرين وإنّما في خدمتهم، لأن الضمان هو في الله وليس بالإنسان. ولا شركة مع الله دون حبّ القريب. ولا شركة مع الله لقلب لا يتحنّن. هذه المحبّة تغتنم كلّ فرصة لتجعل من كلّ إنسان قريباً.

ما يصنعُ القريبَ، ليس مجرّد الروابط، هذه كلّها يمكنها أن تساعد. لكن ما يصنع القريب هو الخروج إليه، وعلاقة الرحمة معه.

اذهبْ (اخرجْ) أنتَ أيضاً واصنعْ معه الرحمة. آميـن